

ثورة بغلة

كم تهزني طرباً موسيقى الفرقة العسكرية الباقية منذ زمان طويل..
أشكال عجيبة لأفراد من البشر ذوي الوجوه الحمراء المتجعدة. والظهور
المنحنية قد أكل الدهر وشرب من أجسامهم المهترئة الهرمة..!
ما زال لباسهم هو ذلك اللباس التقليدي الذي أفزع في أوقات ما نفوس
رجال ونساء وأطفال..

طرابيش حمراء "بعثاكلها" السوداء المتدلّية، وسترات عسكرية غبراء
تتألق منها أزرار نحاسية باهتة وسراويل بعضها قصير وبعضها طويل غير
"مكوية"، وتفقد الإنسجام والتوافق من فرد إلى آخر..!!
كلها متآكلة قد توارثها معظمهم أبا عن جد..!!
ينفخون في آلات موسيقية نحاسية قديمة حتى تنتهي أدواجهم وتكل
أيديهم..!!

بعضهم ينفخ على نفير صخم يسمونه "باصول"، ومنهم من ينفخ على آلة
شبه الناي ويطلقون عليها "قرنيطة".. رقيقة النغم.
أما معظمهم، فيقرعون الطبول و"الحرانة" والصاجات النحاسية بحركة
صارخة وقوية وبعضية..!

لأول مرة أحضر حفلاً منذ تسلمتني المدينة كرهينة في قلعة القاهرة.. تلك
القلعة الشامخة الأركان.. التي تحتل قمة جبل صخري صغير.. يقبع بأمان
في سفح جبل "صبر" الكبير.. ويطل بقلعته على مدينة تعز بقبابها،
ومآذنها البيضاء، وبسورها الحجري القديم.. الذي تكون القلعة جزءاً منه..
في القلعة عشنا حياتنا.. نتجول بين أزقتها كسجناء.. وبقيود حديدية..
وتمنعنا عن العالم الخارجي بوابة منيعة، وعساكر غلاظ الوجوه والقلوب..
نحن سجناء بقيود حديدية والنادر منا لا قيود له..!!

وربما أن السجين العادي يرتأي له الخلاص من قيوده بالأمل.. أما نحن
كرهائن في حوزة الإمام فلا أمل لنا.. ولو وجد فهو أمل بعيد.. لأن علينا أن
ننتظر مولوداً جديداً يخلصنا ويشب عن الطوق.. ليحل محلنا..!!
أما أن يكون الرهينة وحيد أبويه فسجنه مؤبداً..!

لا يمر يوماً دون أن نتدلى بأرجلنا من على السور لكي نطل على المدينة
والجبال والسهول والأودية نتأمل البعيد والقريب.. نتأمل بيوت المدينة
والمآذن والقباب والبشر في أزقتها كأنهم نوع من النمل..

لا صوت يصل إلى مسامعنا سوى صوت نفير السيارة الوحيدة التي تعمل كحافلة ويعلو صوت بوقها الأجرش وهي تنقل بعض الركاب من المدينة إلى "العرضي" مقر الأمام عبر عقبة مرصوفة بالحجارة السوداء.. إنه احتفال بيوم "عيد النصر" .. هكذا كنا نتلقى وصف تلك المناسبة بأنها عيد النصر، ولا نعرف أي نصر هذا وعلى من تم الانتصار.. علق قوس النصر الوحيد على مدخل ميدان ترابي.. تتوسطه منصة مدرجة من الحجارة.. يقبع دائماً وسطها كغول مهول الإمام بعمته وعناكلها المتميزة..منتفخ الكرش والأوداج.. قد وضع يداه على حافة كرسي مصنوع من أخشاب صناديق بضائع التجار.. ممسكاً به كأنه عرش قيصر أو كسرى!

هرع بنا من قلعة القاهرة.. معقل الرهائن.. مع حراسنا ورئيسهم الكهل غليظ القلب واللسان.. حفاة كغيرنا.. ومعظمنا نصف عراة.. متنافرين في أمزجتنا ولهجاتنا وطباعنا.. وأيضاً في ملابسنا.. دلفنا من تحت قوس النصر الوحيد الذي صنع أيضاً من أخشاب صناديق بضائع التجار.. تكلمه أعلام الدولة المتوكلية بسيوفها البارزة المتعطشة لمزيد من الدماء.

كان معلمنا وهو سجين متفقه قد أجرى علينا عدة تجارب "بروفة" قبل يوم "عيد النصر" .. كيف نمشي صفوفاً منتظمة "يس يم.. يس يم.. إلى اليمين أنظر..

لم ننجح في أن نكون مجيدين.. وربما صادف هوى في نفسه فهو لا يريد أي نجاح لذلك اليوم..! وقفنا في مكان مخصص لنا.. وتطلعنا إلى قوس النصر حيث تعالت أصوات صبية.. يلبسون ثياباً غريبة علينا.. بيضاء من قميص وسروال قصير.. لكنهم حفاة أيضاً ما عدا الصف الأيمن منهم والذي سيمر من أمام المنصة كانوا يمرون من تحت القوس وهم ينشدون:
هذه الراية العلية
راية المولى الإمام

وقفوا بجانبنا وكأنهم أجانب.. تبادلنا النظرات الحاقدة.. كنت أعرف أن هنالك أضغان بينهم وبين زملائي الرهائن في كل يوم احتفال.. عرفت ذلك أيضاً من خلال ما جرى من حوار ومناقشة حامية في القلعة يذكيها وللأسف السجين الأستاذ.. بأن على الرهائن الصمود والثبات لكي يكونوا في أول العرض.. قبل طلاب المدرسة.. حتى لو أدى ذلك لاستخدام العنف الذي

يجيده الرهائن طبعاً بحكم منشئهم القبلي.. ويذكيه فيهم مدرسههم السجين
المتفقه بحقد واضح على الأوضاع وعلى الإمام.
تبادلنا جميعاً نظرات الحقد والكراهية..
وفجأة تخلينا عن تلك النظرات المتبادلة لقدوم حشود من الجند "النظام"
و"البراني" بضباطهم و"عرائفهم" بزواملهم الصاخبة:
سادتي أنتم نجوم الأرض دائم..
بسعادتكم نزلنا للتهائم..
نرضي الله والإمام..

وطغى بعد ذلك زامل "النظام" والطبشية
منا سلام الله عليك يا سيدي..
يا اللي لظمت ابليس واستغفر وتاب!
قد عذبه مولاي واخلص موقفه.
تخشى عليه النار في يوم الحساب!

وكانما شعر "البراني" بقوة زامل "النظام" فعلا صوتهم بزامل قوي
وصاخب:

يا وادي الحوبان توسع..
لجيش سيدي والمدافع..

استقرت مجموعات الجيش النظامي، والبراني مع عرائفهم في أماكنهم
المعدة قبل بدء الاحتفال، والعرض العسكري.. وشوهدت بجوارهم بعض
مدافع قديمة تجرها البغال.. وعدة رشاشات ميدانية وقف بجانبها ضباط
وجنود "الطبشية"..
وتوافدت جماهير من البشر من مختلف المناطق المجاورة، ومن سكان

المدينة الذي تصادف يوم، عيد النصر، يوم سوق المدينة الأسبوعي..
تواجد أيضاً على المنصة الحجرية بعض الأجانب بوجوههم الحمراء
النظيفة وملابسهم الأنيقة.. منهم سفراء ومنهم بعض الخبراء باليمن في
مجالات أخرى..

وضعوا كما خيل لي في أماكن بارزة في المنصة كي يشاهدوا عن قرب احتفال مولانا الإمام.. الناصر بيوم عيد النصر.. عيد انتصاره.. لا أدري على من تم ذلك النصر..؟ هل على حركة الأحرار.. والدستور.. والشورى..؟ أم على هتلر وموسوليني.. الذي يصادف اليوم ذكرى انتصار دول الحلفاء على دول المحور؟

الميدان صغير.. لا يزيد عن كونه ملعب كرة قدم ترابي أخذه الإمام غضباً من مواطنين كانوا يزرعون ضمن حقولهم المدرجة التي تنتج الذرة.. وبلا مقابل باعتباره أرضاً من وقف الغسانيين، بني رسول..

الناس محتشدة حول هذا المربع.. وقد وقفت في بعض جوانبه فصائل من الجند النظام، والبراني، وطلبة المدرسة "الأحمدية" والرهائن وبضع بغال بمدافعها، وأطقم رشاشات خفيفة بطبشيتها.. لسعتنا حرارة الشمس فامتزجت بحبات العرق المتربة على وجوهنا لتترك أثراً مؤلماً لا نقدر على أخماده بالهرش المستمر.. حتى الأجانب في المقدمة البارزة في المنصة أخرجوا مناديلهم البيضاء ليحفظوا وجوههم وجوانب أعناقهم الحمراء أيضاً.

كان الوقوف في مثل هذا اليوم بالنسبة لنا شيئاً لا يؤذينا لأنه يوم نكسر فيه حاجز الاعتقال الممل في قلعة تحتل رأس جبل صخري.. وقد استغربنا تدمير الأجانب في المنصة وضيقهم من طول هذا اليوم الكئيب.. وقد نتفق معهم في الشعور بملل الانتظار لوصول موكب الإمام تهامس الجميع بأنه بحسب العادة ما زال ينظر بالمنظار المقرب من نافذة قصره المطل على الميدان الترابي ليرى الناس و..بأنه يتحين الفرصة المناسبة للوصول إلى ميدان الحفل.. كأنه نيرون روما.

بعد لحظات اشترأبت الأعناق نحو قوس النصر الوحيد حيث شعر الجميع بأن الإمام في طريقه للحضور..

وتهادى موكبه التقليدي رويداً رويداً.. وظهر من تحت بوابة قوس النصر الوحيد تحف به ثلة من "العكفة" حرسه الخاص بلباسهم الأزرق المميز وبنادقهم "زكي كرام" .. الألمانية الصنع.. وتتهادى إلى مسامعنا زامل عكفته التوشحي الموسيقي اللفظ.

كريم يا رحمن.. عجل بالفرج..

دلينا لكل صائب..

وانصر إمام الحق..

ذي تعلا له .. الرايات ..
ذكره نشر فوق السحاب ..

المظلة المزركشة بعثاكلها الحريرية الملونة المتدللية تعلو رأسه يحركها
بدوران مستمر عبد أسود يلبس زي العكفة ..
وعلى أنغام الزامل التوشحي الصاخب الغير واضح من قبل عكفة الإمام ..
نزل من على صهوة جواده الأسود "الرعد" أمام المنصة .. أمام عرشه
المصنوع من خشب صناديق بضائع التجار .. والذي يخاله عرشاً ليستقر فيه
دون أن يكلف نفسه أي عناء بتحية يرد فيها على الناس سوى هز رأسه
المثقل بالعمامة ..

وكان البعض يفسر ذلك بأنه يلعن الجميع ويحتقرهم ..
انهالت قصائد الشعر مدحاً للإمام ..

عيد الجلوس على السرير وهكذا
يا بن الأئمة والملوك الصيد
يحى أبوك وجدك المنصور
بالله در أبوة وجدود

وتلتها خطب حماسية لأساتذة، وطلاب وضع مادتها الأساتذة .. وألقيت
بالحرف الواحد .. وطبعاً كان للرهبان خطيب أيضاً .. كما للمدرسة
والآخرين ..

كان الطالب يلقي كلمته ويجواره مدرس ينبهه للأخطاء وبشكل واضح لم
ينطل على من يقعون في الأماكن البارزة في المنصة ..
كانت أصوات الشعراء والخطباء جهورية وصارخة .. فلا وسيلة لإيصال
الكلام للجماهير في ميدان الاحتفال الترابي سوى ذلك ..
انتهت تلك الخطب الشعرية والنثرية .. وبدأ دور العرض العسكري،
والطلابي الذي كنا في شوق إليه ..

وبدأ رجال الفرقة الموسيقية بعزف مارشات عسكرية قديمة تحرك على
إثرها بعض ضباط وجنود يلتفون حول العلم المتوكلي الدامي أدر كنا نحن
الرهبان بأن علينا، كما علمنا الفقيه السجين، ورئيس الحرس الكهل، أن
نتقدم مباشرة أثناء ذلك لكي نقوم بالعرض أمام الإمام قبل أن يسبقنا طلبة
المدرسة الأحمدية ..

لم يكن هنالك مقدم للحفل، ولا برنامج معد ومطبوع .. الإمام ما زال متربعا
على عرشه المصنوع من خشب صناديق بضائع التجار المستوردة ..

وكادت أن تحدث الفتنة بين الرهائن وطلبة المدرسة الأحمدية.. والذي يجذب الإمام أن تحدث، لأنها تبعث في نفسه السرور وبالطبع يخضع طلبة المدرسة ويتقدم الرهائن العرض بكل تنافرهم الواضح في ملابسهم وطباعهم.

تقدمت وحدات الجيش النظامي بملابسها القبيلية المعروفة.. حفاة طبعاً.. يتقدمهم ضباط بلباس عسكري أغبر في لون تراب ساحة العرض ثم تلاهم الجيش البراني بعرائفهم وخبرتهم.. وو.. وجاء عرض الأسلحة الثقيلة.. بضع مدافع قديمة تجرها البغال الحبشية.. وبعض الرشاشات المتوسطة يجرها الطبشية الكهول..

على عزف الفرقة المتأكلة بصخب.. اضطربت له بغلة تجر أحد المدافع القديمة.. وزمجرت بصهيل مرعب.. وحاولت أكثر من يد من أفراد الطبشية أن تمتد إلى عنانها لكي تسكت وتخدم نفورها..

ولكن دون جدوى.. وكان ذلك قد زاد في رعبها فتمادت. وتمادي بغلة في مخاوفها يحدث كارثة..

وقد أحدثتها.. حيث رفت طبشياً كهلاً في رأسه فخر صريعاً.. وقام زملاؤه بحمية لقتلها بالرصاص لكنهم تهيّبوا موقف الإمام. وصاح الإمام وقد وقف بكرشه الذي يتوسطه خنجره الذهبي:
- عليكم بها..

فتكالبت الجند من مختلف رتبهم على البغلة ومدفعها القديم المجرور خلفها.. لكنها زادت نفوراً وعناداً بصلاية هوجاء كأنها وحش كاسر يتم حصاره..

وزاد من هيجانها كون المدفع القديم مربوطاً خلفها حيث أحدث أضراراً جساماً بالجند..

وانطلقت بين الحشود والمدفع يترنح خلفها بوحشية مرعبة.

لم يبق سوى الإمام في منصته مع حرسه وحاشيته وبعض الأجانب الذين يلتقطون صوراً رائعة كذكرى لن تتكرر.

وجدت نفسي خارج الميدان، وما زالت صورة رئيس حرس قلعة القاهرة أمام وجهي.. فقد أصيب بركلة مباركة من حوافر البغلة.. أخذت أنفاسه إلى الأبد..

وشعرت بقدمي تقودني نحو وادي الحوبان، وبين أكامه وعمقه وإثله،
أجري منطلقاً وبلا توقف مخلفاً ورائي كارثة لا أستطيع شرحاً لأفراد أسرتي
الذين سأنعم في البقاء بينهم مدى الحياة.

الخميس: 1980/7/3م